

تأصيل التراث لدى الطفل الجزائري

د. عبد اللاوي ليندة

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

ملخص:

تعتمد التربية الأولية للطفل على التنشئة الأسرية التي يتلقاها في سنواته الأولى اذ هي تؤثر فيه بعاداتها وتقاليدها و تساهم في تشكيل ملامح شخصيته و هذه عملية تشكيل واكتساب يتعرض لها الطفل فيتشرب القيم والمبادئ والسلوكيات بتفاعله مع الأفراد في الأسرة ومن ثم الجماعة داخل المدرسة وصولاً إلى مكانته في المجتمع.

إن الهدف من توثيق العلاقة بين المدرسة والأسرة في إطار التنشئة الاجتماعية و في خدمة التراث و ترسيخه لدى الطفل الجزائري هو تحقيق ذاك التكامل لمواجهة ما يتسبب في اندثار الموروث الثقافي بفعل مواكبة الأحداث المتغيرة التي نشهدها اليوم. إن مسألة تعزيز جهود المدرسة، و ما تقوم به الأسرة في سبيل تأصيل التراث لدى الطفل ذات أهمية بالغة يليها دور الإعلام الذي أصبح يلعب دورا هاما في ظل العولمة والانفتاح على العالم.

الكلمات المفتاحية: التراث - الطفل - الأسرة - المدرسة - الاعلام .

المقدمة:

تعد مسألة التراث الثقافي من أهم المسائل داخل أي مجتمع ، و إن اختيارنا لهذا الموضوع لم يكن اعتباطيا بل له عدة أهداف منها إيجاد الأرضية المناسبة لتناول مسألة بتلك الحساسية، فكل المواضيع التي تدور حول الطفل لا بد أن تعالج بكل عناية و كذا بالنسبة للتراث الشعبي وميادينه المتعددة. يساهم التراث في تنشئة الطفل منذ مراحل حياته الأولى و إذا استندنا إلى المفاهيم الاجتماعية وأطروحات علم نفس الطفل و المقولة التي تؤكد أن

"الانسان ابن بيئته"، فإن المجتمع بشكل عام والأسرة على وجه الخصوص يلعبان دور جوهريا في عملية تأصيل التراث لدى الطفل. سوف نحاول أيضا إبراز دور كل من الأسرة والمدرسة في ترسيخ مفهوم التراث، وتعزيز حضوره الثقافي، وتوضيح أثر ذلك في تحقيق الهوية الوطنية وتميزها الثقافي على ذكر القائل: «إن الامام بالتراث ينير الافكار وينير طريق الحياة».

ان استثمار و بلورة الأمور التي قد تساهم بطريقة ايجابية في توريث واعداد أجيال المستقبل بتقديم سليم للتراث الثقافي المادي و اللامادي أمرا أساسيا و لا سيما لدى الطفل لأنه يشكل جزءا مهما من مكوناته الثقافية الأولى. و من هنا نطرق باب التراث و دوره في التفكير والمشاعر والسلوك الانساني، و أثره في نمو وتطور الانسان وخاصة الأطفال منهم، و كذا تأثيره في ملكات التفكير والتفاعلات الاجتماعية بين الأجيال بالتركيز على التوازن الروحي والأخلاقي.

ان توظيف التراث بشكل صحيح وفعال قضية ذات أهمية بالغة، أما على مستوى الطفل فان غرس مفهوم وقيم التراث بأنواعه المختلفة تلعب دورا مهما في تشكيل العقول و بناء الشخصية، وبشكل خاص في توعية الطفل من خلال بث القيم التربوية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وتنويع عادات وتقاليد المجتمع الذي يعيش فيه.

تعريف التراث :

يعد التراث مصدر ثراء حضاري وأهم رافد من روافد ثقافة الأمم، إنه خلاصة الجماعات وحصيلة خبراتهم وتجاربهم و هو انعكاس للعمل البشري وصورة للنشاط الإنساني في ميادين الفكر والعلم والآداب والفنون، وصورة للحياة في تعدد مرافقها وتنوع مجالاتها. وعلى هذا الأساس، فإن التراث فضلا عنكونه مجموعة من الآثار المادية والفكرية التي خلفها أسلافنا ومختلف ما توصل إليه نشاطهم الإبداعي، فهو وربما قبل هذا وذاك، أسلوبهم في الحياة وأنماط معيشتهم بما تتضمنه من قيم وعادات و آمال والتي تشكل روح الجماعة وماهيتها وهويتها.

"إن التراث سنة الآباء ، كما يرى محمد أركون ، و إطار من الأحكام والشرائع ومعلومات تجريبية شعبية، ومجموعات أدبية فكرية علمية مكتوبة ، خاصة بالطبقات المدنية العاملة ، تختلف عن التراث الشعبي الشفوي والتراث أخيرا تصورات للماضي مبررة لما تحلم به الجماهير لحاضرها ومستقبلها¹

أما من الناحية الأنثروبولوجية ، فيمكننا ذكر ما تقدم به علي عبد الله الخليفة الذي يرى أن التراث قد يقتصر على جل المأثورات الشعبية العربية و هي تتجسد في كل ما صدر عن الشعب العربي بجميع فئاته وطبقاته من إبداع ، ومن شعائر وطقوس ومراسم ومعتقدات وما صدر عنه من عادات وتقاليد . كلها تشكل ثقافة عقلية ومادية خاصة تمثل روحه وحكمته و إبداعاته المختلفة على مر الزمان ، مثل - اللغة - الموسيقى - الأشعار - الأهازيج - الأزجال - الرقص - الحكايات - السير - الملاحم - الأغاني - الأمثال - الأزياء - الحلي - الطب - الصناعات - الحرف - العادات والتقاليد وغيرها مما عبر عنه الحس ، وتفاعل بالتبادل والتداخل والالتحام - و الاحتكاك - و الصراع مع الثقافات المجاورة ، وتواتر عبر الأجيال حتى وصل إلينا.

أما على الصعيد الاجتماعي ، فترى موزة عبید غباش * أن الموروث الشعبي يقدم الكثير للمجتمع بجميع أنظمتها ، سواء كان النظام الاجتماعي هو الأسرة أو القبيلة أو نظام الزواج والعلاقات الاجتماعية وغيرها من عناصر البنية الاجتماعية ، وتعتقد غباش أن هذا الإلحاح على الاهتمام بالتراث ، يعود إلى أننا نعيش مرحلة الخوف من اندثار الموروث، وضياح الهوية ، وغلبة الروافد من الثقافات لأننا في مرحلة الضياع ، فتؤكد على ضرورة و مشروعية جمع شتاتنا الثقافي الذي يواجه اليوم أعاصير التغيير ورياحه . لذلك يجب استقراء التراث للكشف عن العلاقة الاجتماعية بين الموروث الشعبي والإنسان، أو بمعنى آخر، الأبعاد الاجتماعية للموروثات الشعبية بجميع أنواعها لأن الموروث الشعبي بجميع أشكاله وعناصره يمثل التكوين الثقافي للمجتمع، كما تمثل النظم و المؤسسات التكوين الاجتماعي لنفس المجتمع.

وريم اتكون هذه الرغبة هي نفسها وراء هذا الاهتمام بالدراسات التراثية ، وهذه الصحوه العلمية التي بدأت منذ السبعينات وتضاعف إنتاجها العلمي خلال الثمانينات ، وها نحنحاول استكمال هذه الجهود من خلال التركيز على ضرورة تعزيز التراث داخل المجتمع من خلال غرس بوارده لدى الطفل أولا و قبل كل شيء لأنه رجل الغد . و قد أثبتت الدراسات السيكولوجية النفسية أهمية تلقين الطفل القيم و المبادئ بشكل عام في المراحل الأولى من حياته، ألا و هي مرحلة الطفولة.

الأسرة و تعزيز التراث الثقافي عند الطفل:

تُعرّف الأمم المتحدة الطفل بأنه "أي صبي أو فتاة لم يتجاوزا الثامنة عشرة ويعتبر الطفل فردا وعضوا في أسرة ومجتمع في آن معا. والطفل هو إنسان له طائفة كاملة من الحقوق" (الأمم المتحدة، 2005م) كالصحة والتعليم والمساواة والحماية من الأخطار المحدقة التي تمنع تقدم التنمية الصحيحة. و تبقى الأسرة هي المحضن الأول الذي يصنع الإنسان بقيمة ويرسم للفرد اليافع توجيهاته ويمارس دور الرقابة والضغط الاجتماعي على سلوكياته، و قد بدأت التربية الحديثة تدرك بصورة أكبر أهمية مشاركة الأبوين في دعم الجهود المدرسية. ان رسالة الأسرة والمدرسة واحدة لأنهما يسعيان لإيجاد مساحة ينمو فيها كل عضو ليحقق ذاته ويخدم مجتمعه وفق العقيدة التي يؤمن بها.

منذ منتصف القرن العشرين إلى الآن ظهرت دراسات كثيرة أكدت على أن الأسرة تلعب دوراً كبيراً في تعزيز الرسالة التربوية وأنها تُحسِّن من عملية تعلّم الطفل وتدعمه اذ لا يمكن أبداً إلغاء دور الأسرة لأنها نواة المجتمع وسر النجاح للمجتمع بأسره . الأسرة هي التي تشجع الطفل على وضع أهدافه المستقبلية ومهنته المتوقعة، وتتابع تحصيله الدراسي، وتشرف على سلوكياته العامة، ويامكان الأسرة أن تهيئ الأجواء الثقافية للطفل لتحفيز استيعابه لكل ما له علاقة بموروثه الثقافي .

أما عن مسألة "التراث" فهي مسألة "ثقافة"، لذا فإن : «تجديد الفكر لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة التي ينتمي إليها، إذا هو أراد الارتباط بهذه الثقافة والعمل على خدمتها. وعندما يتعلق الأمر بفكر شعب أو أمة

فإن عملية التجديد لا يمكن أن تتم إلا بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة، إلا بالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها وحاضرها.

يقول محمد عابد الجابري في هذا الصدد: "إننا لنهضة العربية المعاصرة لا يمكن لها أن تستقيم إلا وهي ناهضة على التراث" ثم يضيف: "إننا سنبقى نتحرك داخل تراثنا بوصفه تراثا. وأعتقد أن شيئا من "النفى" أو "الغربة" لن يترتب عن ذلك..."²

من جهة أخرى ، فإن «النهضة لا تنطلق من فراغ بل لا بد فيها من الانتظام في تراث. والشعوب لا تحقق نهضتها بالانتظام في تراث غيرها بل بالانتظام في تراثها هي. تراث "الغير" صانع الحضارة الحديثة، تراث ماضيه وحاضره، ضروري لنا فعلا... إن من الشروط الضرورية لنهضتنا تحديث فكرنا وتحديد أدوات تفكيرنا وصولا إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصيلة معا. «وبهذا فإنه» ما لم نؤسس ماضينا تأسيسا عقلانيا فلن نستطيع أن نؤسس حاضرا ولا مستقبلا بصورة معقولة».³

وبناء على ما سبق ذكره يمكننا القول ان الحداثة أو المعاصرة ، ليست في نهاية الأمر سوى حصيلة التفاعل بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وهي جوانب محملة كلها بالإرث الثقافي للأمة ، والذي يميزها وتميزها واستقلالها عبر العصور و الأزمان .

إن الحداثة هي التراث وهو ينمو ويتجدد بفضل العمل الدءوب لجميع أفراد المجتمع . وإن مباركتنا للحداثة وللمعاصرة لا يعني الانغلاق، ذلك أن عوامل القوة في تراثنا بقدر ما تميزنا فإنها توحدنا⁴ . أما عن دور الأسرة في كل ذلك، فيمكننا القول أن للحكاية الشعبية تأثيراً منقطع النظير في نقل التراث من جيل الى آخر ، لهذا تعد إحدى الوسائل المهمة التي تسهم في تحقيق تنشئة اجتماعية آمنة؛ لأن الطفل يتأثر بها إلى حد كبير، فهي تعني له عالمه الخاص الذي يجد فيه المثل الذي يُحتذى به، ويُشكّل لديه الإحساس والانفعال المناسبين لتكوين الأفكار والاتجاهات، ويقبل الأطفال على الاستماع إليها من ذوات أنفسهم، فلا تُفرض عليهم فرضاً يزهدهم فيها، ويصرفهم

عنها، لذلك تميل نفوسهم إليها . لذلك فان تداول الحكاية الشعبية داخل الأسرة و عن طريق التنشئة الاجتماعية امرا جوهريا في تأصيل التراث و ترسيخه ، و بخاصة لدى الطفل.

دور المدرسة في تأصيل التراث لدى الطفل الجزائري:

"العلاقة بين الإنسان وبيئته الاجتماعية كان موازيا لأن يخلق بذلك موروثا حضاريا لأن نظم العلاقات والعادات والتقاليد التي انتقلت من جيل إلى جيل و استقرت في المجتمع واستطاع توظيفها وليضع القوى الأخرى في مسار آخر وكما قال جون ديوي (وحيثما تستحي للأشياء القديمة المألوفة إلى أشياء جديدة في التجربة فهناك لا بد أن يكون ثمة خيال، وحيثما يكون ثمة خيال، يتم خلق الجديد، فلا بد للبعيد والقريب أن يصبحا أكثر الأشياء طبيعة وحتمية في العالم".⁵

ولعل أهم ما ينبغي أن ننبه إليه هنا ضرورة استقراء مدى حضور التراث في البرامج التعليمية العربية بشكل عام و برامج التعليم داخل المدارس الجزائرية . مما لا شك فيه هو أننا أن نوظف التراث في تربية الطفل عن طريق البرامج التعليمية. و ان تواجدت انتقادات في هذا المجال ، فيما يخص الشح الذي تحمله البرامج التعليمية داخل المدرسة الجزائرية اليوم فيما يخص تبليغ الرسالة التراثية للطفل عن طريق التعليم ، الا اننا لا يمكننا القول ان التراث غائب وغير موظف في نشاطنا التربوي.

والحقيقة أن التراث موجود وحاضر بطريقة تلقائية و باستمرار في حياتنا اليومية وفي ممارساتنا التربوية وكذا في مناهجنا التعليمية ، لكنه لم يحظ بعد بتلك العناية اللازمة التي تهدف أساسا الى تحقيق النجاح في الطرائق المتبعة لتجذير الطفل في حضارته و تراثه العربي ، الاسلامي و الجزائري المحلي.

هذا ما تم الاعلان عنه عند تحليل عينة ممثلة من مناهج الدول العربية التي تميزت بالإلحاح على تكوين تلميذ: - متفتح على العالم وعلى حضارات الشعوب الأخرى وعلى الإنسانية جمعاء، ميال إلى التعاون والتعايش والتسامح. له من الطلاقة في اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية ما يمكنه من ذلك، وهو إلى جانب أصالته وحفاظه على

تراث بلاده وعلى ما في تقاليدها من محاسن، فإنه متطلع نحو التغيير ومواكبة مستجدات العصر ومواكبة التطور العلمي والتكنولوجي ، متهئئ للمستقبل بكل ملكاته وجوارحه.⁶

و اذا أخذنا لنموذج المغربي في هذا المجال و التوجيهات الرسمية الصادرة عن وزارة التربية الوطنية بالمملكة المغربية ، على سبيل المثال، ندرك مدى الإلحاح حول تأصيل الطفل المغربي في التراث الإسلامي و تجذيره واندماجه في حضارته العريقة . ففي معرض استعراضها للأهداف العامة من مرحلة التعليم الأساسي على سبيل المثال ، تذكر " وثيقة عمل لإصلاح النظام التعليمي "، والتي أعدتها الوزارة سنة 1985 بأن التعليم الأساسي يعمل على تحقيق الأهداف التالية :

- تثبيت العقيدة الإسلامية المبنية على الكتاب والسنة وغرس القيم الروحية في الناشئة عن طريق العقل والحواس والوجدان ، حرصاً على التشبث بفضائل الإسلام وأحكامه ، لتكون الموجه للسلوك الذاتي للفرد ولعلاقته بغيره.

- تعريف المتعلم بتراث أجداده وأجداد بلاده ، حتى ينشأ محباً لوطنه ، مخلصاً له ، مساهماً في خدمته وتقدمه متمسكاً بمقدساته. هذا ولا بأس أن نشير إلى أن هذه الوثيقة تحدد ، وفي موازاة مع تلك الأهداف ، التي تؤكد التوجه الأصيل للنظام التعليمي في المغرب ، عدداً من الأهداف التي تسعى إلى إكساب المتعلم القدرة على التواصل مع العالم الخارجي أخذاً وعطاء ، بفكر متفتح سموح ، وعقل واع متوقد ، وإذكاء فضوله العلمي وحفزه على البحث والتنقيب . وعلى جعل المتعلم عنصراً للتطور والنماء، قادراً على استيعاب الظواهر العلمية والتكنولوجية وغيرها وإدراك نسبتها وتكييفها، بهدف مساهمة ركب التقدم في جميع المجالات ثم المساهمة فيه عن طريق الخلق و الإبداع⁷

على صعيد آخر، يجب الاهتمام بالأطفال الموهوبين والمتفوقين داخل المدارس وتوجيههم نحو التراث بشكل خاص، والعمل على تنمية ثقافة الطفل بشكل عام في عصر العولمة والانفتاح على ثقافة الآخر، والاهتمام بترجمة الأعمال المقدمة للطفل في شتى المجالات ومنها تراث الطفل وبأكثر من لغة، سواء في الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح وأدب الطفل والنقد.

يجب أيضا خلق مواقع إلكترونية متطورة ترعى ثقافة التراث المقدمة للطفل الجزائري، وضرورة التعاون مع منظمة اليونسكو في المشاريع التعليمية المقدمة للطفل، والاهتمام بقائمة اليونسكو للتراث بها. أما بالنسبة للكتب التعليمية و التربوية ، فإننا نفتقر الى دراسات و أبحاث علمية آنية تتناول هذا المجال للبحث في جوهر الدروس التعليمية و صلب المواضيع التي تحويها الكتب المدرسية وفحواها فيما يخص نقل التراث الثقافي بطريقة سلسلة و ترفيهية لكن تعليمية في ذات الوقت بحيث توعي الطفل بتراثه الحضاري و الثقافي. و كل ما يمكننا قوله هو أنه اليوم، و أكثر من أي وقت مضى، لا بد من التأكيد على ضرورة ترسيخ و تأصيل التراث لدى الطفل داخل المدرسة عن طريق الأساليب و المناهج التعليمية والتربوية.

الإعلام و ترسيخ التراث:

يشكل التراث النسيج الداخلي للمجتمعات و هو الأداة المحركة للشعوب ، و على مستوى الطفل فقد ظهر هذا الأخير كموضوع ثقافي ، ذلك أنه ونتيجة العديد من العوامل وفي مقدمتها انتشار التمدن ومختلف التغيرات التي مست بنيات الأسرة وانتشار المعرفة السيكولوجية، تزايد الاهتمام بمرحلة الطفولة ودورها في تكوين الشخصية وبالنمو النفسي السليم للطفل . كما برز الاهتمام بما أصبح يسمى بـ "ثقافة الطفل" التي لا تكون ثقافة إيجابية و بناءة ما لم تعمل على تكوين المواطن الصالح ذي الشخصية المتكاملة، القادر على استيعاب الخبرات الإنسانية العامة وتحديد انتمائه التاريخي و المجتمعي للشعور بهويته ، ولكي يتم ذلك لا بد من أن تسعى البرامج الإعلامية إلى رفع درجة الوعي لدى الأطفال و تنمية نشاطهم الذاتي و إكسابهم اتجاهات إيجابية نحو دوائهم ونحو ماضيتهم المجتمعي وتاريخهم الحضاري.

استقطب مصطلح "ثقافة الطفل" اهتمام العديد من الباحثين في إطار جو من المنافسة الحادة بين المختصين في علم النفس ، علوم التربية و العلوم الاجتماعية بشكل عام ، بالإضافة إلى غزوها من طرف مختلف وسائل الإعلام بدءاً بصحافة الأطفال و انتهاء إلى الوسائل السمعية والبصرية وفي مقدمتها التلفزيون .

إن الجدير بالذكر هنا هو أننا قد نتساءل عما يقدمه الإعلام للطفل الجزائري اليوم في مجال التراث. من أهم الوسائل التي من شأنها أن تساهم في تشكيل هوية الطفل من خلال تقديم البرامج الموجهة له هو دون شك الإعلام بكافة وسائله، ولكن هذه البرامج كانت وما زالت شحيحة في عددها، كما تعد في نفس الوقت سطحية في منهجها وتناولها لقضايا التراث لا يزال في مرحلة "بدائية". وإذا اعتبرنا أن مسألة تشجيع الطفل الجزائري على الإبداع في مجال التراث لا تزال مغيبة بسبب تشتت الجهود والمؤسسات التي ترعى هذا الجانب، مما يستوجب تخصيص جهة واحدة فقط تتبنى قضايا التراث و ترسم الاستراتيجيات الموجهة التي يتم على أساسها الإشراف والتنفيذ لبلوغ هدف توعية الطفل بتراثه بشتى صوره وأشكاله.

خاتمة:

إن مصادر التربية وثقافة الطفل في أغلب المجتمعات هي الأسرة والمدرسة وبيئة المجتمع والمؤسسات الثقافية ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام التي أصبحت تنافس الأسرة والمدرسة في نشر العلوم والمعارف والقيم والمبادئ لما وصلت اليه من تطورات وتقنيات.

لكن مما لا شك فيه أننا لا بد أن نبادر اليوم في مسألة ترسيخ التراث لدى الطفل، خاصة في عصرنا الحالي، عصر السرعة والتطور العلمي، أين صار من الصعب أن يجلس الطفل لفترة مطولة ليستمتع إلى أحاديث وحكايات تراثية من قبل أفراد أسرته، خاصة في ظل كل المغريات التي توفرها له التكنولوجيات الحديثة من حاسوب و لوائح رقمية و هواتف نقالة و ألعاب الكترونية. علينا تسخير وسائل الإعلام والثقافة وكذا المطبوعات الخاصة بالأطفال للعناية بتراثنا الشعبي من أجل إحيائه بطريقة تجذب انتباه الطفل وتمدّه بالقدر الكافي من المعرفة التي تمكنه من بناء الجسور الثقافية التي تمكنه من تلاقي الماضي بالحاضر.

الهوامش:

(1) - محمد أركون - مركز دراسات الوحدة العربية - ندوة : التراث وتحديات العصر في الوطن العربي. الطبعة الأولى، بيروت 1985 ص 14.

* موزة عبيد غباش (أستاذة علم الاجتماع بجامعة الإمارات ورئيسة جماعة الدراسات الشعبية بدولة الامارات)

(2) - الجابري محمد عابد: العقل الأخلاقي العربي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2001 الطبعة 2.، 2004 ص 28

(3) - الجابري محمد عابد : " التراث والحداثة \" ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1991، ص 33 .

(4) - المرجع نفسه ، ص 36

(5) - العبيدي، محمد (2010م). أثر البيئة الاجتماعية والموروث الحضاري في الأسلوب الفني (بلاد النهرين انموذجا) . موقع صوت الوعي (مركز دراسات وبحوث) ، على الرابط الالكتروني :

<http://www.alwa3i.com>

(6) - عبد الهادي بوطالب الايسيسكو) عن كلمته في افتتاح أشغال "ندوة الطفل والتراث" ، بكلية علوم التربية ، الرباط ، أيام 23 - 26 نوفمبر 1989 .

(7) - أنظر : أحمد إحدوثن، الخطاب التربوي بالمغرب ، سلسلة المعرفة للجميع ، العدد 28، يناير 2003 الرباط.